



مشارك فكرية

المثقفون والسلطة في روايات التجربة الناصرية

محمود أمين العالم

الثقافة العربية والسلطة

بحث في روايات التجربة الناصرية

د. سماح ادريس



دار الآداب

نهاية الكتاب تماثلاً سريعاً بين الروايات المصرية والروايات العربية عامة من حيث مواقف شخصياتها من السلطة. ومؤلف الكتاب شاب لبناني مفكر نابِه هو الدكتور سماح إدريس الذي يهدي كتابه إلى والديه الأديبين العزيزين عابدة مطرجي إدريس والدكتور سهيل إدريس.

ويتناول الكتاب أكثر من عشرين رواية مصرية، وإن كان بينها روايتان للآديب الأردني الراحل غالب هلسا هما السؤال والروائيون. وهما روايتان كتبهما غالب هلسا في القاهرة شأن العديد من رواياته. فلقد عاش في القاهرة أكثر من عشرين عاماً. والروايتان مهمومتان بمواقف المثقفين من السلطة الناصرية. ولهذا فالمؤلف عدّها من الروايات المصرية. وأما بقية الروائيين الذين تناولهم كتاب الدكتور سماح فهم نجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشوقاري وفتحي غانم ويحيى حقي ويوسف السباعي وصنع الله إبراهيم وجمال الغيطاني. ونلاحظ تنوع الأسماء الذي يمثّل اتجاهات فنية وإيديولوجية مختلفة. والبحث ينتسب في الحقيقة إلى ما يمكن تسميته بسوسيولوجية الأدب. ولقد اختار الدكتور سماح الرواية موضوعاً لبحثه، لأنّ الرواية قامت - كما يقول - «بدور رائد في تمثيل الواقع السياسي الاجتماعي خاصّة، وفي إعادة خلقه، إلى جانب تمثيلها مختلف

نشر الأستاذ الكبير محمود أمين العالم القراءة التالية لكتاب سماح إدريس المثقف العربي والسلطة - بحث في روايات التجربة الناصرية في جريدة الوطن (الأحد ٢٦ يوليو ١٩٩٢). وفيما يلي نصّ ما كتبه الأستاذ العالم:

في هذه الأيام التي نحتفل فيها بمرور ٤٠ عاماً على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، رأيت أن أشرك قراء الوطن معي في قراءة كتاب قيّم صدر حديثاً عن التجربة الناصرية، برغم أن هذا الكتاب بطبيعة موضوعه لا يكاد يُبرز من هذه التجربة الغنيصة إلا الجانب السلبي منها الخاص بقضية الديمقراطية، دون جوانبها الوطنية والاجتماعية التقدمية المختلفة. والكتاب في الحقيقة ليس كتاباً عن التجربة الناصرية في ذاتها، إنما هو يعرضها من خلال مواقف شخصيات بعض الروايات الأدبية المصرية التي كانت هذه التجربة موضوعاً لها بشكل مباشر أو غير مباشر. وعنوان الكتاب هو المثقفون العرب والسلطة - بحث في روايات التجربة الناصرية (دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢). على أنه في الحقيقة يقتصر على المثقفين المصريين وإن أقام في

وجهات النظر التي تبناها المثقفون إزاء هذا الواقع» (ص ١٩). فالرواية العربية على خلاف المسرح والشعر «قد أتاحت للكتاب - بفضل مساحتها الواسعة وتقنياتها المتعددة - أن يُفيضوا في التعبير عن أمور هي على سبيل المثال لا الحصر: عذاب المثقفين في السجن، ومعاناة جلاّد السلطة، وصراع المثقفين فيما بينهم وترابط السلطة السياسيّة والبطبريكيّة والجنسيّة، وغيوب اليسار الماركسي» (ص ٢٠). ولعلّ هذه الأمور التي تعرّضت لها الرواية المصريّة - والعربيّة عامّة - قد كانت مشار الاهتمام خلال السنوات الأخيرة؛ فلا أقلّ من سبعة مؤتمرات انعقدت تبحث في موضوع واحد هو المثقفون العرب والسلطة، كما تحفل المكتبة العربيّة بالمقالات والكتب عن هذا الموضوع عينه (...). «ويكاد المثقفون العرب يوحون، بغضّ النظر عن مشارهم السياسيّة، بالاتحاد في مواجهة ما يبدو وكأنه سلطة عربيّة واحدة طاغية» (ص ٢٠ - ٢١).

وفي الروايات المصريّة، وفي المرحلة الناصريّة بوجه خاصّ، برزت أزمة العلاقة بين المثقفين والسلطة، منذ بداية قيام ثورة يوليو عام ٥٢، ثمّ تضاعفت الأزمة وخفتت بعد ذلك بل تحوّلت إلى تحالف وعمل مشترك في مرحلة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ (مرحلة باندونغ وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي)، ثمّ تفاقمت الأزمة من جديد في أعوام ٥٨ - ٥٩ مع اندلاع الثورة العراقيّة، ثمّ تضاعلت وخفتت مرّة أخرى في أعوام ٦١ - ٦٦ رغم وجود الشيوعيين في السجون في السنوات الأولى منها، وهي مرحلة التأميمات الكبيرة، ثمّ عادت إلى التفاقم بعد هزيمة ١٩٦٧. وخلال هذه المراحل عبّرت الرواية المصريّة - بشخصياتها الفنيّة المختلفة - عن مواقف

المثقفين المصريين من النظام الناصري. وهكذا أخذت دراسة الدكتور سماح في تحديد خصائص المثقفين وعلاقاتهم بالنظام. ولم يتخذ الدكتور سماح الايديولوجيّة معياراً لتحديد العلاقة بين الشخصية الروائيّة والنظام سواء من حيث الشكل أو المضمون، وأما حرص على استخدام التسميات العلائقيّة دون أن يستبعد العامل الايديولوجي. فمن النادر - كما يقول - أن نجد شخصيّة روائيّة ماركسيّة هروبيّة تتجنب السياسة؛ ومن النادر أن نصطدم بشخصيّة إخوانيّة مؤيدة لعبد الناصر (ص ٦٧). ومع ذلك فإنّ التقسيم العلائقي - في تقديره - أكثر قدرة على تحديد الفروق الدقيقة في المواقف دون أن يعني هذا أنه تقسيم نهائي جامد؛ فهناك تداخلات بين مختلف الأقسام. وهكذا يقسم د. سماح الشخصيات الروائيّة بحسب علاقتها بالنظام إلى سبعة أقسام هي: ١ - الشخصية الموالية ولاء مطلقاً للنظام، ٢ - الشخصية الاعتداليّة، ٣ - الشخصية الموالية ولاء نقدياً، ٤ - الشخصية الرافضة، ٥ - الشخصية الهروبيّة، ٦ - الشخصية الانتهازيّة، ٧ - شخصيّة المُستعدّي. ويتعرّض لكلّ منها عرضاً سريعاً على حساب الكثير من التفاصيل والتحليلات المهمّة التي تزخر بها هذه الدراسة التي تتجاوز الثلاثمائة صفحة.

الشخصيّة الأولى هي الموالية ولاء مطلقاً، ويتبيّن البحث في بعض النماذج في المراسم لنجيب محفوظ وفي رواية ليل له آخر ليوسف السباعي. ففي المراسم نجد صادق عبد الحميد وقدري رزق اللذين يؤيّدان كلّ ما ذهب إليه النظام بما في ذلك تعاونه مع أميركا وحلّه للأحزاب وتحولّه نحو الكتلة الشريّة إلى غير ذلك (ص ٦٨ -

٧٠). وأما في رواية يوسف السباعي فمن الطبيعي - وهو رجل النظام - أن نجد جميع شخصيات رواياته بشكل عام موالية ولاء مطلقاً. وفي رواية ليل له آخر هناك شخصيتان بارزتان هما حمدي (وهو جندي مصري) وحسّان (وهو سوري يمقت الشيوعيين والبعثيين) إلى جانب شخصيّة سهير ونادية. تبيّن في هذه الشخصيات الروائيّة قوّة الإيمان الأعمى بالقائد. على أن د. سماح لا يقف في دراسته عند الإشارة للطابع العام للشخصيّة وأما يحرص كذلك على تحليل هذا الموقف. ففي هذه الشخصية الموالية بشكل مطلق يتبيّن سمة التعالي إزاء المثقفين الآخرين فضلاً عن السعي للتقرّب من مركز القرار.

والشخصيّة الروائيّة الثانية هي الاعتداليّة التي تحرص دائماً على تبرير أخطاء النظام الناصري أو تلطيف هذه الأخطاء. ويشير الكتاب بوجه خاصّ إلى رواية صحّ النوم ليحيى حقّي، التي تكاد أن تكون - في تقدير المؤلف - نموذجاً للاعتداليّة. فالرواية تبرّر ما يُتهم به القائد من عزلة عن الجماهير بأن «من أراد أن تكون له نظرية شاملة فليس أمامه إلا أن يترك السهل ويرتقي قوّة الجبل» (ص ٧٦)؛ إلى غير ذلك من الأمثلة العديدة في الرواية. على أن هناك نوعاً آخر من الاعتداليّة يسعى لإلقاء اللوم على الجماهير لما يحدث من أخطاء. فنقصان وعي الجماهير السياسي هو المسؤول عنها. كما يلتقي اللوم كذلك على الحاشية البيروقراطيّة الانتهازيّة والعناصر الرجعيّة داخل النظام التي تحوّل بين عبد الناصر والناس. وعلى هذا فداخل النظام حكومتان: حكومة عبد الناصر وحكومة بقايا الإقطاع

وجهاز الأمن. ولعلنا نجد النموذج على ذلك في رواية الفلاح للشرقاوي.

على أن الملاحظ أن الدكتور سماح لا يكتفي بتحديد الشخصيات الروائية التي تتسم بهذه السمة الاعتذارية وإنما يدخل في حوار معها محاولاً بالمناقشة المنطقية دحض منطقتها الاعتذارية. فنراه يقول مثلاً إن القول بالحكومتين زعم، لأنها ليستا في الواقع شديدتي الافتراق الواحدة عن الأخرى (ص ٨٤). وسوف نلاحظ هذا في الكثير من المواضيع في الكتاب، حيث يتدخل المؤلف لا لتفسير الظاهرة في تجليها الروائي الفني وتحديد دلالتها، وإنما لمناقشتها؛ وهذا ما يجعل منه شخصية أخرى من شخصيات الرواية وإن يكن من خارجها!

والشخصية الثالثة هي الموالية ولاءً نقدياً أو الموالية بتحفظ. ويلاحظ د. سماح أن عدد الموالين بتحفظ أكثر من عدد الموالين ولاءً مطلقاً ومن الاعتذاريين، وإن تبين كذلك تقاطعاً وتداخلاً بين الاعتذاريين والموالين بتحفظ والرافضين.

ويرى المؤلف أن المرايا لنجيب محفوظ تكاد تعبر في كل قصصها (وهو يعتبرها رواية واحدة رغم تعدد لوحاتها القصصية) عن تأييد متحفظ للمؤسسة الناصرية، ويفسر هذا بطغيان صوت الراوي على شخصياتها (ص ٨٨): فالراوي في موقف وسط بين الرفض المطلق والولاء المطلق، وهذا ما يفضي في النهاية إلى هذا الموقف الولائي النقدي. ويحلل المؤلف أربع شخصيات في المرايا معبرة عن هذه الشخصية، هي عزمي شاکر (شيعي) ومجيدة عبد الرزاق (شيعي) وكامل رمزي (شيعي) ونادر برهان (وفدي). كما يتبين في رواية الكرنك لنجيب محفوظ أيضاً،

الشخصية نفسها في كل من اسماعيل وزينب، وتبين هذه الشخصية الروائية في الباقي من الزمن ساعة لنجيب محفوظ في شخصية سهام التي تنتقل من التأيد إلى النقد مع تبنيها للفكر الماركسي، وفي رشاد الذي يميل إلى الحركة الإسلامية (ص ٩٢). ويرى المؤلف أن الماركسيين يشكّلون غالبية الشخصيات الروائية التي تؤيد عبد الناصر تأييداً متحفظاً (ص ٩٥). وهو كالعادة يحلل هذا ويفسره بكتب النظام للحرية إلى جانب أسباب أخرى.

وأما الشخصيات الروائية الراضة فيتبين المؤلف أنها أقل عدداً في الروايات السابقة على موت عبد الناصر (عام ١٩٧٠) من تلك التي نُشرت بعد وفاته؛ وهو أمر طبيعي - كما يقول - أن يبرز الرفض في مرحلة السادات الذي شجّع على نقض الأسس الناصرية (ص ٩٧). ويشير المؤلف إلى بعض الشخصيات الروائية في تلك الرائحة لصنع الله إبراهيم، والشحاذ لنجيب محفوظ، وسالم وعبد الوهاب إسماعيل في المرايا لنجيب محفوظ على اختلاف موقفيهما: فالأول وفدي أصيح شيوعياً، فهو يرفض تناقضات الثورة؛ والثاني متعصب إخواني يمثّل في إخوانيته الراضة محمد برهان الإخواني أيضاً في الباقي من الزمن ساعة لنجيب محفوظ. ويتدخل المؤلف كالعادة ليؤكد أن هذه الشخصيات على تعصبها تقدّم أحياناً «نقداً له حظّه من المعقولية والصواب» (ص ١١٠). ويواصل تدخله ليقول «إنّ المرء إذ يقرأ التاريخ الذي مضى ليشعر أنّ كثيراً من الجوانب السلبية التي اكتتفت التجربة الناصرية كان من الممكن تفاديها والسير نحو مستقبل سياسي أكثر إشراقاً وصحة لو أنّ المؤسسة الحاكمة أخذت نقد الراضين بعين الاعتبار»، ويقدم أسانيد على ذلك (ص ١١٠ - ١١١). ولا شك

- دون أن أشارك المؤلف الدخول في حوار مع الشخصيات الروائية من خارجها - أنّ الجوانب السلبية في التجربة الناصرية لها جذورها الأشد عمقاً من أن تعالج على هذا النحو المبسط؛ فهناك جذور طبقية واجتماعية وايدولوجية للسلبات فضلاً عن ملابسات سياسية واقتصادية داخلية وخارجية يمكن أن تكون تفسيراً لها وتكون معالجتها بالوعي والسيطرة عليها.

أما الشخصية الروائية الانتهازية فيتبينها المؤلف في رواية نجيب محفوظ السمان والحريف في شخصية ابراهيم خيرى، وحسن ابن عم بطل الرواية، ورؤوف علوان في رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ، وسرحان البحيري في رواية ميرامار لنجيب محفوظ أيضاً، ومحمد ناجي في رواية الرجل الذي فقد ظله لفتحي غانم، «والدكتور» في رواية اللجنة لصنع الله إبراهيم، وعبد الهادي النجار في رواية زينب والعرش لفتحي غانم. وتبين المؤلف وجود عدد ضخم من الانتهازيين في الرواية المصرية. وهو يفسر ذلك من خارج بنية الرواية المصرية بضعف الحياة الثقافية في المرحلة الناصرية التي كانت تحتاج إلى استخدام المثقفين، وإلى اعتماد المثقفين على الحكومة، فضلاً عن رفض كتاب الرواية للانتهازيين (ص ١١٨ - ١١٩).

أما الشخصية الروائية للهروي أو المتراجع فقد مثلها عيسى الدباغ الوفدي السابق في رواية السمان والحريف لنجيب محفوظ، ومصطفى وعمر الحمزاوي في الشحاذ، وشخصيات ثرثرة فوق النيل، ومنصور باهي في ميرامار، والروايات الثلاث لنجيب محفوظ، إلى جانب دياب في زينب والعرش لفتحي غانم، ومصطفى في السؤال لغالب هلسا، وسعيد

وعباس في نجمة أغسطس لصنع الله إبراهيم. ويفسر المؤلف مواقف هؤلاء الهروبية بضغط الحكومة التي تدفع المثقفين إلى تطبيق السياسة (ص ١٣٢)؛ وإن كان يفسر المهروب أحياناً على أنه شكل من أشكال الاحتجاج السياسي (ص ١٣٧).

أما الشخصية الروائية الأخيرة فهي شخصية «المستعدى»، وتمثل الشخصية التي ينوئها النظام على أساس ماضيها. ويحصى المؤلف الأبطال المستعدين فيجدهم عشرة وفدين موزعين على روايات نجيب محفوظ (ص ١٤٣): فعمسى الدبّاع في السمان والحريف - رغم وفديته - يهمل للثورة لطردها الملك فاروق ويسعد بالكثير من إجراءاتها التقدمية، ولكن الثورة تستبعده بحكم ماضيه؛ وكذلك «عبده بسيوني» الوفدي السابق المخلص للثورة في المريا ولكنه يتهم ظلماً في مؤامرة ضد الثورة (ص ١٤٤).

ويتنقل الكتاب بعد ذلك إلى فصل مهم من فصوله، يختص بالعلاقة بين شكل التعبير ومضمونه. فهناك ترابط بين تقنيات العمل الأدبي وطبيعة المعارضة السياسية (ص ١٤٩). فلا شك أن واقع القمع والكتب والرقابة يفرض أسلوباً معيناً في النصّ المعارض والناقد للسلطة - كما يقول المؤلف بحق - كنوع من التقية مثل اللجوء إلى الكناية والرمز والإشارة وغير ذلك. ويضرب على ذلك أمثلة من بعض الروايات مثل رواية الزيني بركات لجمال الغيطاني، التي كتبت بتأثير القمع في الستينات؛ ومثل بنك القلق لتوفيق الحكيم الذي لاقى بعض الصعوبات في نشرها؛ ورواية نجمة أغسطس التي نشرت بعد أربع سنوات من موت عبد الناصر، ومع ذلك فهي تتضمن إشارات رمزية إلى قمع الفراغة وستالين والماليك بما يشير بشكل

غير مباشر إلى نظام عبد الناصر.

وإلى جانب هذه الأساليب الكنايية والرمزية فهناك وسيلة السخرية التي تفرضها الحاجة إلى التعبير غير المباشر. ولعلّ هذا هو ما حوّل الرواية من أسلوب المحاكاة للواقع الاجتماعي إلى الاتجاه التخيلي والرمزي. ولهذا يميّز المؤلف أربعة أساليب تقنية في الكتابة في هذه المرحلة، وهي: أسلوب الأليغوريا الذي نبتته في الزيني بركات ويغلب عليه الإيحاء الرمزي والخالص؛ وأسلوب الإشارات الأليغورية التي نبتتها في نجمة أغسطس؛ وأسلوب الأصوات المتعددة الذي نجده في ميرامار حتى يختفي فيها الراوي وراء تعدد الأصوات؛ وأسلوب القصّ ذي المستويات المتعددة ونجده في روايتي تلك الرائحة ونجمة أغسطس اللتين تشكّلان من بنيتين داخل نصّ واحد (ص ١٤٩ - ١٧٥).

ويتنقل المؤلف بعد ذلك إلى دراسة محاور أساسية في بنية الشخصيات في الروايات السياسية، مثل الاعتقال والسجن والتعذيب، ومثل دور الإغراء الوظيفي، ومثل دور المرأة، والموقف من الدين والجهير والحزب المعارض والمثقف الآخر. والمحور الأول يعرض أولاً أثر السجن في الشخصيات الروائية المختلفة، وهذا ما يعطي للسجن نفسه دلالات مختلفة عند كلّ منها: فعند أحمد شوكت في السخرية لنجيب محفوظ قد يتخذ السجن طابعاً رومنتيقياً، على حين يتخذ طابعاً اجتماعياً جمعياً طوبوياً عند عثمان في الشحاذ. وقد نبتت أثر التعذيب في الجلاد نفسه كما في العسكري الأسود ليوسف إدريس. على أن السجن لا يبدو كأداة للإصلاح كما أنه لا يستأصل سلطة المثقفين بل لعله - كما يقول المؤلف - يعيد صياغتها (ص ١٨٧).

وتناقش هذه الفقرة مسؤولية عبد

الناصر شخصياً في قضية التعذيب، وهل كان يتمّ بمعرفته أو من وراء ظهره. ونبتين أن معظم شخصيات روايتي هلسا السؤال والروائيون يرفضون تبرئة عبد الناصر (ص ١٩٦).

أما المحور الثاني، محور الوظيفة، فهو يكشف استخدامهما لتهر المثقف أو لشرائه وتحقيق ما يسمى بالاغتيال الهادئ؛ ذلك أن «قطع الأرزاق من قطع الأعناق» (ص ٢٠٢ - ٢٠٣). وأما المحور الثالث فيتعلّق بالموقف من الجماهير؛ فالجماهير قد تكون أحياناً وسيلة لتعزيز قناعات وللحماية من الاضطهاد؛ وقد تكون أحياناً أخرى وسيلة للوصول؛ وقد يقف منها بعض الشخصيات موقف التقديس، على حين يقف البعض الآخر موقف الإدانة محملاً الجماهير مسؤولية سلبات المرحلة نتيجة لسلبيتها نفسها.

والمحور الرابع هو محور «الدين». ويلاحظ المؤلف أنه «شدّ أن تجد شخصية روائية في المؤسسات الدينية أداة لتغيير سياسي أو اجتماعي». كما يلاحظ بحق أن الرواية العربية في العقود الأخيرة الثلاثة هي «رواية علمانية»، لا بمعنى الموقف المعادي للدين أو التجاهل له، وإنما لأنها تؤوّل الدين تأويلاً واقعياً موضوعياً. على أن الإسلام - كما يقول المؤلف - تنويسي في روايات التجربة الناصرية ودين بوصفه فكراً ظلامياً لا عصرياً في بعضها. وفي بعضها الآخر اعتبر دين العدالة والمساواة، وهو في ثرثرة فوق النيل يبدو عاجزاً عن أن يقدم للشخصية المثقفة مخرجاً لأزماتها السياسية. ويقوم الدين في رواية السؤال هلسا (ص ٢٢٨) بدور قمعي «شبيه بالدور الذي تقوم به الشرطة».

أما المحور الخامس فهو محور المرأة. ولا تقود المرأة النضال السياسي بنفسها اللهم

إلا في بعض الروايات وهي جميعها روايات غير مصرية يشير إليها المؤلف. ولهذا يقف دور المرأة في الروايات المصرية عند تشجيع المثقف في كفاحه وتخفيف آلامه، أو تكون جسراً بينه وبين الجماهير، وقد تصبح عائقاً في مواجهة خططه السياسية (ص ٢٤٧). والواقع أن هناك مسرحية صغيرة هي مسرحية «النجاة» لنجيب محفوظ نجد فيها شخصية نسائية متمردة ثورية، تواجه السلطة مواجهة مسلحة؛ ولكن يبدو أن المؤلف لم يحرص على الإشارة إليها لطابعها المسرحي غير الروائي.

أما المحور السادس، وهو الحزب المعارض، فيتعرض للعلاقة بين الأحزاب الشيوعية والتنظيم السري الذي أقامه عبد الناصر داخل الاتحاد الاشتراكي. ويقتصر تحليل هذا المحور على رواية البيضاء ليوسف ادريس، وزينب والعرش لفتحي غانم، والسؤال لغالب هلسا. ويتعرض لمحاولة احتواء الشيوعيين، ولاسيما في روايات فتحي غانم وغالب هلسا.

وأما المحور الأخير فهو الموقف من المثقف الآخر، ويعرض التناقض بين الشخصيات الروائية المختلفة فيما بينها رغم ما يجمع بينها من عداة للمؤسسة الحاكمة، مثل التناقض في أوساط الشيوعيين، وبينهم وبين الوفديين والإخوانيين؛ على أنهم قد يتلاقون ويتحالفون في مواجهة الخطر الخارجي، ثم يعودون إلى التناقض بعد ذلك (ص ٢٦٧). ولعل في أحداث روايتي السكرية والقاهرة الجديدة لنجيب محفوظ نماذج على ذلك.

وفي هذه الفقرة نجد المؤلف يخرج عن سياق التحليل الداخلي للروايات ليفسر، كعادته، العلاقة المتناقضة بين شخصياتها

بأسباب من خارجها. وهو يعبر عن هذا صراحة بقوله: «فلا ضير إذن من الخروج عن نطاق الرواية وإثبات ما قاله أحمد عبدالله وسلمى بوطمان ومحمد عودة في هذا الخصوص، فلربما أعاننا على فهم طبيعة علاقة الشخصيات المثقفة الواحدة بالأخرى» (٢٦٧). كما يعقب على رواية الروائيون لغالب هلسا قائلاً: «وتوحي الروائيون لهلسا أن الخلافات بين الشيوعيين المصريين الماويين من جهة والمؤيدين للاتحاد السوفياتي من جهة أخرى ليست عصية على الحل، وإنما ناتجة عن تفكير عقائدي جامد» (ص ٢٧٤). ثم يعلن «خيبته الشخصية» في كثير من الشخصيات الروائية (ص ٢٨٢)، ويتهم المثقفين بأنهم يشاركون في مسؤولية القمع السلطوي بل في ترسيخ أقدام القمع، فضلاً عن تطلّعهم للسلطة (ص ٢٨٥). ولو أخذنا منهج المؤلف وخرجنا عن الروايات لوجدنا سجون مصر في تلك المراحل تمتلئ بالمثقفين الذين وقفوا موقف المعارضة لمختلف ظواهر القمع في النظام الناصري، فضلاً عن المواقف النضالية والتضحيات الكبيرة في مختلف المجالات. وأما مفهوم المؤلف للتعامل مع السلطة فنعرضه بعد ذلك.

ويتهيء الكتاب بتأكيد المؤلف على أن هناك عناصر مشتركة بين شخصيات هذه الروايات المصرية وشخصيات الروايات العربية عامة. ولعل هذا هو ما يبرر له العنوان الذي اتخذته لكتابه.

ثم يخلص الكتاب أخيراً إلى ثلاثة تكهنات بالنسبة لمستقبل الرواية المصرية العربية. فهو يتكهن بأن روايات العقد الجديد «١٩٩٢ - ٢٠٠٠» ذات الطبيعة

السياسية سوف تكون أكثر عنفاً في نقدها ومعارضتها. كما يتكهن بأنه رغم انتشار الحركات الإسلامية في الوطن العربي فإنه لا يرى أن للإسلام دوراً أكثر «مبدئية» في الرواية المصرية العربية في العقد القادم. والتكهن الأخير هو أن التطورات الأخيرة في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي وأنيوسيا وفلسطين وغيرها قد تشجع الروائيين العرب على أن يكونوا دعاة أصلب للبهات الشعبية وأكثر إلحاحاً على الثورة كسبيل مكمل للفكر الإصلاحي (ص ٢٨٦ - ٢٨٨).

ولا شك أن هذا الكتاب هو جهد كبير مخلص في استيعاب مقومات الشخصيات المختلفة في الروايات المصرية خاصة وفي محاولة تفسير مواقفها ومواقفها إزاء المرحلة الناصرية، متسلحاً بمنهج علمي متسق بشكل عام. على أن هناك بعض الملاحظات العامة:

- لعل أولى هذه الملاحظات هي تلك الملاحظة التي أشرنا إليها طوال الفقرات السابقة الخاصة بتدخل المؤلف باستمرار لتفسير أو نقد بعض مواقف الشخصيات الروائية من خارج الرواية نفسها. وبرغم أن المؤلف ينفي عن نفسه اعتبار الشخصيات الروائية انعكاساً مباشراً للواقع الاجتماعي الخارجي، فإنه بهذا التدخل والتفسير والنقد من الخارج يكاد - عملياً - يقع في هذه الرؤية الانعكاسية المباشرة. ولعل هذه الملاحظة تنقلنا إلى هذه الملاحظة الثانية:

- فالمؤلف يعرض بشكل دقيق بالفعل لسيمات كل شخصية من شخصيات

الروايات، ولكنه يعرض هذه السمات في ذاتها، معزولة عن سياقها الروائي الذي قد يفسر هذه السمات بما حولها من أحداث وملابس أخرى. فالشخصية الروائية عنصر في بنية زاخرة بالشخصيات الأخرى والأحداث، وسلوكها هو مكوّن من مكوّناتها الذاتية الخاصة بغير شك، ولكنه كذلك محصلة للنسيج الروائي الذي يتحرّك فيه وبه. ولهذا فإنّ مواقفها تفسّر لا بذاتها وإنما بالسياق الروائي العام. وأمّا نزاع هذه المواقف من هذا السياق، فضلاً عن تفسيرها في ذاتها أو سياق اجتماعي من الخارج فهو ينزع عنها طابعها كشخصية روائية، ويضعف من قيمة تفسيرها.

ومن هذه الملاحظة السابقة تنبع ملاحظة أخرى هي أنه برغم النهج الصحيح بشكل عام في تقسيم الشخصيات بحسب علاقتها بالبعد الأيديولوجي واستبعاد المؤلف للبعد الأيديولوجي استبعاداً منهجياً، فلا شك أن هذا قد ساعد إلى حدّ كبير على تقليص طبيعة الشخصية وقدمها من خارجها، فضلاً عن أن هذه العلائقية البحتة للشخصيات الروائية قد جعلت لهذه الشخصيات قيمة أقتومية في ذاتها. وبرغم الإشارات المتعددة للمؤلف إلى الراوي ودوره، سواء كساجهيراً أو مضمراً، فإنّ الدراسة استبعدت انعكاس أيديولوجية المؤلف على هذه الشخصيات الروائية. والحقيقة هي أن هذه الشخصيات ليست شخصيات الواقع، وليست شخصيات في ذاتها، وإنما هي شخصيات متخيّلة تمثّل رؤية المؤلف الروائي للواقع.

وإذا كنّا نستبعد المؤلف والكتاب الروائي في الدراسات النقدية المحايدة للنصّ الروائي الإبداعي بشكل مؤقت،

ولا نتخذ معرفتنا به أساساً للحكم على القيمة أو الدلالة في الرواية، فإنه في الدراسات السوسولوجية الخالصة للنصّ الأدبي لا سبيل إلى إغفال الموقف الأيديولوجي والأثر الذاتي للمؤلف. فمواقف الشخصيات الروائية - كما ذكرت - هي رؤية المؤلف لهذه المواقف في الواقع الاجتماعي. ولهذا لم يكن غريباً أن يلاحظ الدكتور سماح بحق أن جميع شخصيات رواية يوسف السباعي تؤبّد النظام الناصري تأييداً مطلقاً؛ ذلك أن يوسف السباعي يكتب رواية أيديولوجية دعائية مباشرة باعتباره جزءاً من مؤسسة السلطة. وليس غريباً أن نجد في الشخصيات الروائية عند نجيب محفوظ مواقف متوازنة وسطية؛ ولا شك أن هذا يعبر عن واقع اجتماعي، ولكن من خلال منظور نجيب محفوظ الخاص. وإذا تأملنا مثلاً النسيج الروائي للناقد الراحل غالب هلسا، سنجد تعبيراً عن رؤيته الشخصية وخبرته الخاصة جداً التي تعكس حدود وطبيعة علاقاته الذاتية والاجتماعية والسياسية في مصر. فتضخيم هلسا مثلاً لمن يسميهم بالماويين تضخيم لا أساس له في الواقع المصري، إذا نظرنا إلى الأمر نظرة اجتماعية موضوعية خالصة، ولا يخرج الأمر عن مجموعة من المثقفين الذين لم يكن لهم علاقة بمجمل العمل السياسي المجتمعي. وكذلك الأمر بالنسبة لناذجه النسائية التي تعبر عن خبرة محدودة خاصة جداً، فضلاً عن رؤيته السياسية المتعلقة بحقيقة الحركة السياسية المصرية والشيوعية عامة؛ فمع احترامي الكامل لغالب هلسا فإنّ الصورة التي يرسمها للحركة الشيوعية المصرية صورة لا تعبر عن مجمل حقيقة هذه الحركة.

وليس هنا مجال للتفصيل في ذلك،

ولكن القضية التي أُلحّ عليها هنا، هي أن دراسة الشخصيات الروائية غير منفصلة عن الأخذ في الاعتبار الموقف الأيديولوجي والتكوين الاجتماعي والسياسي والملابس الخاصة للمؤلف الروائي إذا أردنا دراسة اجتماعية لهذه الشخصيات. ولهذا فمن الخطأ اتّخاذ هذه الشخصيات الروائية في ذاتها باعتبارها تعبيراً مباشراً عن وقائع اجتماعية موضوعية وأساساً لتقييم هذه الوقائع. ولا شك أن الدكتور سماح أشار - كما ذكرت - إشارات متعدّدة إلى هذا، إلا أنه لم يكن جزءاً من منهجيته العامة.

وهناك ملاحظة جزئية تتعلق بمفهوم المثقف. فما هو مفهوم المثقف في هذه الدراسة الخاصة بالعلاقة بين المثقف والسلطة؟ فهناك بعض الشخصيات الروائية التي عرضتها الدراسة من الصعب أن تنتسب إلى مفهوم للمثقف اللهم إلا إلى المفهوم العام الذي يقول به جرامشي والذي يجعل كل إنسان مثقفاً بل فيلسوفاً. والواقع أن الكتاب جعل من كلّ شخصية من شخصيات الروايات مثقفاً، أو تعامل مع مختلف الشخصيات بهذا المفهوم العام، مثل حمدي الجندي المصري وغيره من شخصيات أخرى. ولا شك أن كلّ مشارك في عمل سياسي، أي في عمل عام وذي موقف عام، هو مثقف. ولكن الأمر كان يحتاج إلى تحديد؛ فهناك فروق بين المثقفين؛ ولعلّ جرامشي أشار إلى ذلك، من حيث طبيعة العمل الذي يمارسونه والتخصّص الذي يتخصّصون فيه.

والملاحظة الأخيرة تتعلق بمفهوم السلطة عند المؤلف والموقف منها. فلا شك أن السلطة العربية، وكلّ سلطة، تسعى

لاحتواء المثقفين واستخدامهم وسائل وأبواقاً لمصالحها. ولكن هذا لا يعني أن كل علاقة مع السلطة هي علاقة سلطوية. وليس الموقف الصحيح من السلطة دائماً هو موقف القطيعة والرفض المطلقين. فليس سياسياً جاداً من لا يسعى إلى السلطة أو يتعامل معها بشكل أو بآخر تحقيقاً لأهدافه. ولهذا فالعلاقة مع السلطة إنما يتم تقييمها بحسب طبيعة السلطة وطبيعة العلاقة معها والموقف منها. ولا يتم الحكم عليها بشكل إطلاقي مجرد. هناك بغير شك اختلاف بين المثقف النظري الذي يقف داخل حدود ايدولوجية لا يخرج عنها تقييماً وحكماً وسلوكاً. وهناك المثقف السياسي الذي يتعامل مع الواقع من أجل تغييره عملياً وليس نظرياً فحسب. ولعل مفهوم فوكو للسلطة الذي يتبناه المؤلف هو المسؤول عن تعامله مع مفهوم السلطة في كتابه هذا. فبرغم صحة مفهوم فوكو من حيث أن السلطة منتشرة منبثة في البنية المجتمعية عامة، وليست متمركزة فحسب في مؤسسة علوية، فإن الاقتصار على هذا المفهوم يفضي إلى إفقاد السلطة المركزية دلالتها الاجتماعية الطبقيّة ويجعل الصراع معها صراعاً ضريبياً مجرداً أو يفضي في النهاية إلى الاستعلاء عنها والتمرد الفردي المطلق ضدّ المفهوم المطلق للسلطة أيّاً كانت!

وقد يصحّ هذا الموقف في التصوّرات النظرية والتطهريّة، ولكنّه في الممارسات النضاليّة السياسيّة يصبح عزلة واعتزلاً.

وتبقى أخيراً ملاحظة تفصيليّة صغيرة لا تتعلّق بمتن الكتاب وإنما بجزيئية في ملحق من ملاحقه. فلقد جاء في «ص ٢٩٨» أنه في أيلول عام ١٩٥٨ نبّه الحزب الشيوعي المصري إلى الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين سوريا ومصر، وانقسم

الحزب إلى قسمين بعد أن قرّر أحد الأجنحة الانضمام إلى «الاتحاد القومي» التابع للنظام.

والواقع أن الانقسام الذي حدث في أواخر عام ١٩٥٨ لم يحدث بشأن الوحدة المصريّة السوريّة؛ فقد كان هناك موقف موحد لكلّ الشيوعيين المصريين في الحزب الواحد الذين توحدوا داخله في الترحيب بالوحدة ونقد الأسلوب اللاديموقراطي في تحقيقها، مع الدعوة والنضال من أجل دعمها.

أما الانقسام فقد نشأ بسبب الموقف من الثورة العراقيّة. فلقد انقسم الحزب إلى جناحين: جناح يقول إنّ التناقض الرئيسي في نظام عبد الناصر لم يعد مع الامبريالية وإنما مع الطبقة العاملة المصريّة ومع

الشعب عامّة، وجناح يقول إنه على الرغم من هذه المواقف السليمة للنظام فإنّ التناقض الرئيسي لا يزال بين النظام الناصري والامبريالية العالميّة. ووقع الانقسام الفعلي بين الجناحين ولم يقرّر أحد الجناحين الانضمام إلى الاتحاد القومي، وإنما استمرّ كلا الجناحين مستقلّين تنظيمياً. وعندما تمّ اعتقال الشيوعيين عام ١٩٥٩ كان الجناحان معاً في عربة واحدة في الطريق إلى مختلف المعتقلات ومختلف أشكال التعذيب والمحاكمات. هذا للحقيقة والتاريخ.

هذه بعض الملاحظات العامّة والتفصيليّة التي لا تقلل بحال من الأحوال من القيمة العلميّة لهذا الكتاب ولا من المتعة الصافية والفائدة الكبيرة في قراءته.

ليل المعنى وشموع الحوار

د. نزار بريك هنيدي

قراءة في كتاب ليل المعنى*
صلاح ستيتية وجواد صيداوي

قضايا متعدّدة هامة تثيرها مقاربة عالم «صلاح ستيتية» ومواقفه في الشعر والوجود عبر الحوار الغني والمتنع الذي أجراه معه «جواد صيداوي» وامتدّ على مساحة ١٨٤ صفحة من كتابها الجميل ليل المعنى الصادر عن دار الفارابي/بيروت. يحدث هذا في الوقت الذي يشع فيه اللغظ والهذر عن «موت الشعر»، لا في أوساط الجمهور بل - ويا للأسى - على لسان كثير من الكتاب والشعراء الذين يبدون وكأنهم يتصلّون من «لونة» علقتم بهم وما عليهم سوى أن يثبتوا تحلّصهم

(* صلاح ستيتية، ليل المعنى (حاوهر جواد صيداوي)، بيروت (دار الفارابي، ١٩٩٠).

منها عبر اشتراكهم (الفاقع أو الخجول) في مراسم دفن هذا الكائن غير المرغوب به: الشعر!

وإذا كان المجال الآن لا يسمح بمحاولة تقصي الأسباب والدوافع التي تكمن وراء هذا الموقف، فإنّ من المفرح القول إنّ كتاب ليل المعنى جاء ليسهم في إعادة وضع الشعر في مكانه الحقيقي: في جوهر الوجود، في عمق الحياة، في أصل التجربة الإنسانية. فقد لا يكون للإنسان عامّة من معنى إلاّ من خلال النصّ الشعري، كما يقول ستيتية؛ فالشعر هو الذي يعيد الإنسان إلى «وطنه» الأساس، الساجي تحت ركام الأحداث واليوميات وشؤون الحياة وشجونها. إنه سعي مكثّف للعودة إلى الأصالة، إلى الجوهر، إلى السبراء